فلســـفة سبنسر

للاستاذ زكي نجيب محمود

تمهيد

تستطيع أن تصور لنفسك الحركة الفكرية في أوربا في القرن الماضي بندٍ ولا يتذبذب من طرف إلى طرف ؛ ويقفز من النقيض إلى النقيض ، وليس في ذلك نبو أو شـــذوذ ؛ إنما هي الطبيعة الانسانية ؛ أو ان شئت فقل هي طبائع الاشياء جميعا ، اذا ما تطرف بها الموضع ، لا تستطيع أن تتوسط في مقر معتدل مطمئن قبل أن تجذبها الدفعة الى أقصى الطرف الآخر . وهكذا خضعت الفلسفة في القرن التاسع عشر لما تخضع له الأشياء جميعا ؛ فاهتزت بها الأرجوحة بين طرفي النقيض .. ففي أوائل القرن المـــاضي طوح بها هجل في بيداء الغيبيات والتجريد فلا تكاد تقرأ شيئا من ، حتى تضل في عالم وراء هذا العالم المحس الملموس ؛ فليست الطبيعة عنده شيئا ، وما وراء الطبيعة هو كل شيء . ولكن لم يكد ينسلخ من القرن نصفه الأول ويضرب الناس في أحشاء النصف الثاني حتى نفر العقـــل الانساني من ذلك الفكر المجرد ، وسئم تلك الميتافيزيقا المعقدة الموحشة ، وأعياه هذا العب الثقيل . فألقاه عن كاهله غير آسف ، وقفز الفكر الى النقيض الآخر . فنهضت فلسفة جديدة تنكر غيبيات هجل وأشياع مذهبه ، وتنتقل بالانسان الى ضرب آخر من ضروب الفكر ، بعد أن كانت تتناول بالدرس حياة لا يرتاب وإياها الا الخيال الشارد ، أخذت تعالج مظاهر هذا العالم الواقع المحسوس . نعم انتقلت الفلسفة الى المعرفة اليقينية الايجابية . وكان حامل اللواء في هذه الحركة أوجست كنت في فرنسا . ثم داروين وسبنسر في انجلترا

وكان طبيعيا أن تنشأ هذه الفلسفة الايجابية في فرنسا ، لانها سرعان اللا أدرية والشك ، وهما طريق لابد أن تؤدي يوما الى الايمان واليقين مهما امتد بها الزمان ؛ ثم كتب لهذه الحركة الايجابية أن تتصل بتيار الفكر في انجلترا الذي استمد روحه من الصناعة التي تدوي أرجاؤها في كل ربع من ربوعها ، والتي تقوم على العلوم أولا وآخراً ؛ فليس عجيبا أن يصوب الفكر الانجليزي ناظريه نحو الحقائق الجزئية التي هي المعين الذي تستنبط منه العلوم بأسرها وأن يضرب بكل ماوراء الطبيعة عرض المحيط . . وقد كان يكون أول من انتحى بقومه ذلك النحو من التفكير ، ثم تأثر خطوه من جاء بعده من فلاسفة الانجليز : هوز ولوك وهيوم

عنى الانجليز إذن بدراسة ما حولهم من أحياء وأشياء حيث آمنوا ايمانا قاطعا انها هي الحقائق التي لا حقائق بعدها ، فنتج عن هذه الدراسة علوم الطبيعة والكيمياء وسائر العلوم جميعا ؛ بما في ذلك علم الحياة الذي كانت نظرية التطور ثمرة من ثمراته . وقد فصلها داروين في كتابه أصل الانواع تفصيلا شافيا ، فكان لها دوي ارتجت له اركان الجامعات ومجامع العلم في أنحاء العالم ، ثم جاء على الأثر فيلسوفنا سبنسر حيث استوى على ذروة تلك الموجة الفكرية فتناول مبدأ التطور وأخذ يطبقه على كل ناحية من نواحي التفكير . وهانحن أولاء نورد لك خلاصة موجزة لأهم ماجاء في كتبه من آراء .

١ — الحقيقة المطلقة ، أو ما لا يمكن معرفته

يقدم سبنسر بين يدي كتابه المبادىء الاولى ، قضية لا يرتاب في صدقها ، وهي ان كل دراسة تقصد الى البحث في حقيقة الكون واستقصاء علله ، لابد ان تنتهي الى مرحلة يقف حيالها العقل عاجزاً لا يستطيع ان يدرك عندها من الحق شيئا ، سواء سلك الى ذلك سبيل الدين أو العلم أو ماشئت من سبل

ابدأ بالدين وانظر كيف يعلل لك الكون : هذا ماحد يحاول ان يقنعك بأن العالم انما وجد بذاته ، لم يتفرع عن علة وليس له بدء ولا ختام ؛ فلا يسعك أمام قوله هذا الا أن تمط شفتيك جحودا وانكارا ، لأن العقل لا يسيغ معلولا بغير علة ، وموجودا سار في الحياة شوطا لا بداية له ... ثم استمع الى هذا الناسك المتدين هاهو ذا يقص عليك علة الكون وكيف كانت نشأته ، فخالق الكون عنده انما هو الله العلي العظيم ، ولكنك صلب عنيد ، سترى أنه لم يفسر من المشكلة شيئا ، ولم يزد على صاحبه سوى أن أرجعها خطوة الى الوراء ، وكأني أسمعك تسأله في سذاجة الطفل ومن أوجد الله ؟ . وإذن فالدين بجانبيه — الايمان والالحاد — لم يستطع أن يقدم لك تعليلا واضحا معقولا

خذ العلوم ، فلعلك واجد عندها ما يرد حيرتك . . . سائل العلم :

ما هذه المادة التي أراها وألمسها والتي تغص بها جوانب الكون؟ انظر! ها هو ذا يحلل لك المادة الى ذرات ثم الى ذريرات أدق . ثم الى أخريات أكثر منها دقة، ثم ماذا؟ هنا يقف العلم بين اثنتين ، فهو اما ان يعترف بأن المادة قابلة للتجزئة الى مالا نهاية له من الاجزاء ، وليس من اليسير أن تسيغ هذا القول ، واما أن يقرر بأن ثمت حدا يقف عنده التقسيم ، وهو ما يستحيل عليك أن تقنع به . . . ثم سائل العلم عن القوة ماهي ؟ فلست أحسبه يستطيع جوابا . . واذن فالعلم كذلك عاجز عن شرح حقائق الكون .

وأي غرابة فيما يصادف الذكاء البشري من ابهام لايقوى على معرفته ؟ انه أعد لكي يفهم ظواهر الأشياء ، ولايعدوها الى ما خفي وراء أستارها ، ولكنا في الوقت نفسه لانستطيع أن ننكر هذا الشعور الذي تضطرب به نفوسنا من ان وراء هذا الغشاء الظاهر حقيقة كامنة، حسب العقل أن يدرك وجودها ، اما اذا هم نحوها بالتحليل والتعليل خر صريعا عاجزا

وعلى هذا الاساس من وجهة النظر ، يصبح التوفيق بين العلم والدين هينا ميسوراً ، فليقصر العلم دائرة بحثه على ظواهر الأشياء دون أن يتورط في البحث عن حقائقها المستورة . . له أن يتناول المادة تحليلا وتركيبا دون أن يبحث في ماهية المادة ، وله أن يستنبط قوانين الحرارة والضوء والصوت وما اليها من مظاهر القوة دون أن يعلم ماهية القوة ، لان هذه وتلك فوق مقدوره ، وكل محاولة له في هذا السبيل ضرب من العبث . . . أما الدين فخير له أن يترك هذا العقل المعاند الملحاح ، الذي لا يطمئن لغير الحجة المنطقية ، خير له أن يترك هذا العقل يسبح في غروره وأن يناشد العقيدة من الانسان ، لان من طبعها ألا تلزم بالحجة العقلية . . قل للعلم أن يكف عن اثبات الله أو انكاره فليس اللاهوت ميدانه الذي يصول فيه ويجول ، وقل للدين أن يكف عن مناشدة العقل لانه لايستقيم مع نهجه في التفكير ، تر الدين والعلم أخوين متصالحين لكل منهما حلبة ومجال

ترى من هذا أن سبنسر يعتقد اعتقاداً لا يلين للشك بأن وراء ظواهر الاشياء حقيقة مغلقة لا يستطيع العقل البشري أن يعلم من أمرها شيئا ، ولكني أريد أن أتقدم هنا الى سبنسر في تحفظ وتواضع باعتراض منطقي ، فالقول بان مسألة ما يستحيل على العقل أن يعلم عنها شيئا ، قول يهدم نفسه بنفسه لانه يتضمن اعترافا بأن العقل قد ألم بها فعلا بعض الالمام فقد أدرك وجودها على أقل تقدير ، ثم سار في بحثها شوطا أيقن بعده أنها فوق مقدوره المستطاع ، اذ لو كانت مغلقة دون العقل اغلاقا تاما، لما علم بوجودها فضلا عن علمه بقدرته على ادراكها أو عدم قدرته

٢ — التطور

ولكن مهما يكن من أمرها هي ذي الفلسفة — أي العقل — قد ألفت سلاحها معترفة بقصورها وعجزها عن ادراك تلك الحقيقة الكامنة وراء ظواهر الأشياء . وبادرت فألقت بهذا العبء الذي أثقل كاهلها طوال العصور الى الدين يبحثها ما شاءت له طرائقه ، ولتقنع الفلسفة بالبحث فيما تستطيع له فهما وادراكا ، ولتكن مهمتها منذ اليوم تلخيص النتائج العلمية وجمعها في وحدة شاملة . فقد بدأت المعرفة بأشتات متناثرة من المعلومات ، ثم امتدت اليها يد العلم بشيء من الربط حتى تركزت في طائفة من العلوم . أفلا يجدر بالفلسفة أن تواخي بين أفراد هذه الجماعة من العلوم المختلفة . فتكب المعارف الانسانية جميعا في وحدة متماسكة ؟ حقيق بها الا تدع سبيلا للبحث حتى تهتدي الى قانون عام ينتظم التجارب الانسانية جميعا ، كائنا ما كان لونها . . . ترى هل توفق الى الهداية في هذه الطريق الملتوية الوعرة ، فتنتهي الى قانون واحد يفسر هذا الشتيت المتضارب مما يقع تحت حسنا ؟ ويضم تحت لوائه المفرد كل هذه البنود المتباينة مما تضم صدورنا من تجربة وعلم ؟

يجيب سبنسر أن نعم . ألا يتلخص تاريخ الكائنات جميعا في ظهورها من بدء مجهول ثم اختفائها في نهاية مجهولة ؟ اذن فلابد أن يكون ذلك القانون المنشود شاملا للتكوين والانحلال . . . الا وهو التطور . وهنا يضع سبنسر قانونا للتطور شرحه في مجلدات عشرة واستغرق من زمنه عشرين سنة كاملة ، هاك نصه : « التطور هو تجمع لاجزاء المادة ، يلازمه تشتيت للقوة والحركة ، وفي خلال ذلك تنتقل المادة من حالة التجانس المطلق الى حالة التباين المحدود » ولشرح هذه العبارة نقول :

لقد تكونت الجبال الشامخة من ذرات الحصى ، وامتلأت المحيطات الفسيحة بقطرات ضئيلة من الماء ، واجتمعت عناصر دقيقة من الأرض فكونت الادواح العالية ، ووجبات متعاقبة من الطعام تشيد أجسام الرجال ، وتآلفت طائفة من المشاعر والذكر فألفت فكراً ومعرفة ، ثم تآخت جزئيات المعرفة فانتجت

علما وفلسفة ، لقد تطورت الاسرة الى القبيلة ، ثم الى المدينة والجنس ، ثم الى الدولة ، ثم الى تحالف بين دول الأرض قاطبة ... كل هذه أمثلة لاجزاء المادة المتناثرة كيف تأتلف وتجتمع بعضها الى بعض . ومن جهة أخرى يسبب هذا التآلف حدا من حركة الاجزاء وشلا لقوتها ، فثورة الدولة مثلا تحد من حرية الافراد ، والحبة من الهباء حرة الحركة وهي منفصلة ، مشلولة مقيدة اذا ما اجتمعت مع اخواتها في صخر أو جبل .. ولكن تجمع الاجزاء يستتبع نتيجة أخرى هي التنوع والتنافر في العمل الذي يؤديه كل منها ، فقد كان الديم الأول مركبا من مادة متجانسة يشبه بعضها بعضا ولكنها سرعان ماتنوعت في غازات وسوائل وأجسام صلبة .. أنظر فهذه قطعة من الاديم قد افترشت سندسا أخضر ، وتلك الجبال قد اكتست ثلوجا ناصعة البياض ، وذلك البحر قد تسربل بلباسه الأزرق ... أنعم النظر في هذه الخلية الواحدة المتجانسة وما سينشأ عنها من مختلف الاعضاء : هذا للغذاء وذاك للافراز وثالث للحركة ورابع للادراك ... اللغة الواحدة لاتكاد تسري في بطاح الأرض حتى تتنوع في ألسنة ولهجات لا يفهم بعضها عن بعض .. العلم الواحد يتفرع عنه عشرات من العلوم ، المنظر أو الحادثة توحي صوراً من الفن والأدب ليس الى حصرها من سبيل ... كل هذه أمثلة على التنوع والتنافر اللذين يعقبان التشابه والتجانس

وهكذا أسطورة الحياة : تجمع وتفريق ، تآلف وتنافر ، تأتلف الاجزاء وتجتمع في وحدة لا تزال تطرد في النمو حتى يدركها تنافر الأجزاء ، ثم يشتد هذا التنافر ويشتد حتى تتلاشى وتنحل ...

سنة الوجود هذا الانحلال والتكوين ، ولكنه بين جذبة المد ودفعة الجزر يلتمس التوازن لكي ينتهي اليه ... فكل حركة تعاني من المقاومة مايؤدي بها البطء ثم الى السكون عاجلا أو آجلا ... الكواكب السيارة يضيق فلكها شيئا فشيئا .. حرارة الشمس وضوؤها يقلان كلما تقادم عليها الدهر . الارض تتلكأ في سرعتها عهدا بعد عهد الدماء في عروقنا سيصيبها البرودة والبطء ... وهكذا سيسعى الوجود نحو الانحلال ، أو سيسعى الانحلال الى الوجود خطوة خطوة ، وهي غاية محتمة للتطور : سينحل المجتمع وتتفرق الشعوب ، وتذوب المدن . وبمثل هذا تتم دورة التطور والانحلال ولكنها ستبدأ السير ثانية وثالثة الى مالا نهاية له من المرات ، وكل تكوين جديد لابد ان ينتهي بالفناء والموت

وهكذا كان كتاب « المبادىء الأولى » مأساة مروعة تروي لنا قصة العالم : صعود وهبوط ، تكوين وانحلال ، حياة وموت ، تطرأ متتابعة على الأحياء والأشياء ... أفيكون عجبا أن يقابل هذا المؤلف عند اخراجه واذاعته في الناس ثورة عنيفة لانه لم يدع مجالا للعقيدة والأمل ؟!

رأيت فيما سبق أن التطور عند سبنسر هو القانون الذي تنشده الفلسفة لكي تضم بين دفتيه علوم الانسان بأسرها . فهما قلبت النظر في مظاهر الكون وجدتها تسير في سبيل التطور أي من البساطة الى التعقيد ومن التجانس الى التباين . ويجدر بنا أن نورد في هذا المقام نقدا للفيلسوف المعاصر يرجسن على هذا القانون ؛ فهو يقول ان سبنسر بقانونه هذا انما يقدم لنا صورة الطبيعة كما هي ، وليست هذه مهمة الفيلسوف ، بل يطلب اليه أن يفسر هذه الصورة التي اكتفى هو بسردها سردا .

ويختم سبنسر كتابه هذا برأيه في الحياة بأنها تافهة حقيرة لاتستحق البقاء ، فاصاب بهذا الرأي ما أصاب الفلاسفة جميعا من محنة النظر البعيد ، إذ التي ببصره الى الأفق النائي ، فرت صور الحياة الخلابة تحت أنفه دون أن يراها !!

ولنقف من الأمر عند هذا الحد على أن نعود في مقال تال الى تتمة الموضوع ؟

زكي نجيب محمود

أهل الكهف

تأليف

الأستاذ توفيق الحكيم

اتمت لجنة التأليف والترجمة والنشر اعادة طبع رواية « أهل الكهف » وجعلت ثمنها عشرة قروش عدا أجرة البريد

والرواية في ابداعها وطرافة موضوعها ودقة تصوير حوادثها غنية عن التعريف

تطلب من لجنة التأليف ومن المكاتب الشهيرة